روسيا حماس كبير للصهيونية خصوصا منذ الاطاحة بالنظام القديم (القيصري) » .
لقد آثر بلفور اهمال نصيحة موفده ومندوبه الخاص في مسرح الاحداث وقبول تأكيدات الصهيونيين الذين يعيشون في لندن على بعد آلاف الاميال من يهود روسيا . وقد وصف ادوين مونتاغو هؤلاء الصهيونيين بأنهم من اليهود المولودين في الخارج ، وهم الوحيدون الذين يدعون الى انشاء وطن قومي يهودي .

وبالطريقة ذاتها بالغ بلفور كثيرا في اظهار العطف الفرنسي على التطلعات الصهيونية كما أثار مخاوف زملائه الوزراء من احتمال قيام ألمانيا بأخذ زمام المبادرة من الحلفاء باصدارها وعدا بالتعاطف مع التطلعات الصهيونية ، وصور لهم أن اصدار وعد بريطاني سيكون له وقع حسن لدى اليهود في الولايات المتحدة. ولم يقل أبدا أية كلمة عن العرب، وتجاهل ملاحظات اللورد كرزون ، ولم يحاول مطلقا أن يجيب على أسئلته . وقلما كان وزير خارجية بريطاني متعاميا الى هذا الحد عن الجانب الاخر من قضية هامة .

[٤]

لقد أوصد بلفور ومساعدوه في وزارة الخارجية منافذ عقولهم الى واقع الاشياء وعميت بصيرتهم بحيث أنهم أثناء مداولاتهم بشأن تقرير مصير فلسطين ظلوا على اتصال وثيق بالصهيونيين ، ولكنهم رفضوا ، بعناد واصرار ، أن يأخذوا بالاعتبار الاحتجاجات التي قدمها المسلمون المقيمون في لندن (لقد حالت ظروف الحرب دون الاستماع الى رأي العرب الذين يعنيهم الامر لان معظمهم كانوا يقيمون في مناطق العدو) . ففي حزيران ١٩١٧ ألقى مرمادوك بيكثول ، الذي اشتهر فيما بعد بترجمته للقرآن ، محاضرة في قاعة كاكستون نشرتها ، فيما بعد ، الجمعية الاسلامية المركزية في لندن في كراس بعنوان « المصالح الاسلامية في فلسطين » ، والغرض من هذه المحاضرة كما قال صاحبها هو ازالة الجهل الخطير المتفشي ، عندئذ ، في بريطانيا ليس بين عامة الناس فحسب بل حتى بين الوزراء ، بشأن ما ينطوي عليه تطبيق الخطة المقترحة « بانشاء دولة يهودية في فلسطين في ظل سيادة احدى الدول المسيحية » من مضامين ومخاطر . واشتملت تلك المحاضرة على عرض واف لمكانة فلسطين والقدس في الاسلام وفي التاريخ العربي . وقد قدم نص هذه المحاضرة المطبوعة في كراس الى وزارة الخارجية البريطانية كاحتجاج اسلامي ، واطلع عليها كبار المسؤولين في وزارة الخارجية ثم بلفور نفسه . أما ملاحظات السير مارك سايكس عندما اطلع على المحاضرة فتكشف الكثير من النوايا المبيتة ، فعندما لم يجد في نص المحاضرة ما يعيب هاجم صاحبها من الزاوية السياسية دامغا اياه بأنه موال لتركيا ، وهي تهمة سيئة في ذلك الوقت وان تكن قد فقدت معناها الان . وكانت هذه التهمة كافية لاهمال النصيحة الهادئة التي محضها للحكومة البريطانية ، وهي ان فلسطين مقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام ، وأن من الخطأ الاهتمام بمصالح الديانتين الاوليين فقط وتجاهل الثالثة .

وعادت الجالية الاسلامية في لندن الى الهجوم من جديد ، فبعد خمسة أيام من اصدار « وعد بلفور » قدمت احتجاجا الى وزير الداخلية البريطاني وطالبت بضمانات بشأن المسجد الاقصى وغيره من الاماكن الاسلامية المقدسة . ولكن ، في هذه المرة ، لم يعتبر السير مارك سايكس الموقعين على الاحتجاج مجرد موالين لتركيا فحسب ، بل «عملاء» لتركيا وحض بقوة على تجاهل احتجاجهم ، وكذلك لم تكن أسعد مصيرا من هذه رسالة الاحتجاج التي وجهها « السيد أمير علي » من مجلس شورى الملك في بريطانيا بتاريخ ١٩١٧/١١/١٠ الى اللورد هاردينج الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ومندوب الملك السابق في الهند . وقد رغب السيد أمير علي أن يسترعي انتباه بلفور الى واقع أن « فلسطين هي في نظر المسلمين أرض مقدسة دون أدنى شك ، وان مدينة القدس لا